العلم والشعر

في الوقت الحاضر

بقلم ه . وادنجتون

كان المستر جيوفرى جريجسن رئيس تحرير جريدة ذات مكانة عظمى بين الجرائد التى تنشر الشعر الحديث ، ومن أشهر من صنف منتخبات شعرية حاول أن يصور بها الحركة الرومنسية التى بلغت أوج ازدهارها فى بدء القرن الماضى فى زمن وردزورث وكوليدج . ومما يثير دهشة المطلع على هذا الكتاب أن يجد إلى جانب المقتبسات من الشعراء والرسامين بضعة مقتبسات من مؤلفات كبار رجال العلم فى ذلك العصر ، مثل السير همفرى داقى ؛ ولكن المطلع لا يلبث أن يدرك أن جريجسن محق فى عمله هذا . ذلك أن الحركة الرومانسية فى أوجها كان لها تأثير شامل تخلل كل شىء حتى إنه ليمكن لمح آثرها فى رجال العلم أنفسهم ، أو على الأقل حين يقل خضوعهم للنزعة العلمية الدقيقة المتشددة . وأنا أريد فى مقالى هذا أن أقرر أن القضية قد انعكست فى يومنا هذا : أن العلم هو الآن صاحب النفوذ الأعظم والسيطرة الغالبة على تفكيرنا وأنه يصبغ الشعر العصرى بصبغة خاصة متميزة .

ولعله يجدر بى أن أقرر من البداية بكل وضوح أننى لست أدعى أنه كلما ازدادت المسحة العلمية للشعر كان الشعر أجود . فان أهم واجب على الشاعر هو أن يكون شاعرا جيدا ، أما كونه شديد الحساسية بالشعور الغالب فى عصره فهذا أمر ثانوى وإن لم يعن ذلك أنه أمر غير ذى بال . فالواقع أنه من السهل على الأديب أن يكون « عصريا » إلى حد يجعل من المستبعد خلوده ؛ فالشعر البالغ فى العلمية فى يومنا هذا من الراجح أنه سينسى سريعا كما نسى الشعر المبالغ فى الرومانسية من مائة عام خلت . فأما ما أدعيه فهو أن معظم الشعراء اليوم سواء منهم الرديئون والجيدون يطلعوننا فى شعرهم على وجهة نظر تخالف وجهة العصور السابقة ، يحق للمرء أن يعتبرها شديدة التأثر بالعلم . وفى زمان عمت فيه الفوضى والإنحلال مثل العشرين عاما الأخيرة لا شك أن المرء يتمنى أن يلمح أية علامة تنبىء باقتران الفن والعلم ، تينك الحركتين العظيمتين من حركات النشاط الإنسانى ، وأنه يشجع مثل هذه العلامة حين يتوسمها .

من السهل بطبيعة الحال العثور على أمثلة للأخيلة العلمية يستعملها الشعراء المحدثون . وأحيانا — وإن لم يكن ذلك دائما — تكون المادة العلمية قد سجت نسجا بارعا فى فكرة القصيدة كلها ، ومثل ذلك التشبيه المشهور لاليوت T.S.Eliot :

« حين يتمدد المساء على صفحة السماء كمريض خدر وممدد على منضدة » .

لكن هذه التأثيرات للعلم تافهة نسبيا . فليس يهم كون لغة الشعر وخياله علميين أو غير علميين ، بل أهم من هذا بكثير أن نتساءل ماذا يفكر الشعراء وماذا يحسون عن العلم . ولكن على المرء هنا أن يحذر ويحتاط : فالشعراء لا يدلون دائما بتقرير جلى عن موقفهم من العلم حين يمسّونَ علما . بل هم يعبرون عن موقفهم من مختلف حركات النشاط فى العالم اليوم ، وقبل أن نقرر ما موقفهم من العلم ، يلزمنا أن نقرر ما هو الشىء الذى نعتبره اليوم علما .

تلك مسألة خطيرة . فالواقع أن مفهوم العلم قد طرأ عليه تبدل سريع . كان يتصور أنه فى الحل الأول دراسة عارضة تحليلية للعالم ، ولكنه مع ذلك شىء ليس يحاول تفسير الأشياء فحسب ، بل يحاول أيضا تأويلها (أى تفسيرها بتفسير يلغيها) . وهكذا قابل الشعراء بحماسة وترحيب الإنتصارات الأولى للعلم التحليلى . فاليك بيتى بوب Pope المشهورين :

« ظلت الطبيعة وقوانينها محجوبة فى ظلام الليل ، حتى قال الله : ليكن نيوتن ، فانقلب الكل نورا ! »

ولكن ما جاءت الحرب الماضية حتى كانت تلك الحماسة قد تبخرت . فوجدنا ييتس Yeats يصف موقف العقل وصفا صريحا جليا بأنه :

« عقل يدك كل شيء دكا ، حقود ذو ضغن ومرارة ، منطق صارم ، ما حدث قط أنه أطل من عيني قديس ، ولا من عيني سكير » .

وهذا الإحتجاج ضد غطرسة الذهن ، ضد محاولة الإستعاضة عن الحياة وخضمها الغزير الغني بفروض وتصورات تجريدية ، هو من أهم التقريرات الشعرية وأعمها في الوقت الحاضر . فالشعراء يكادون يجمعون على أن هذا الموقف المادي الآلي المغرور بنفسه هو المسئول عن انهيار حضارتنا انهيارا مدمرا يرونه جميعا رأي العين .

فحين بدأ أودن Auden إحدى قصائده بهذا البيت :

« هرباً من المنفذين المخبولين المحلوق الشعر » .

واضح أنه كان يعني أنه يفضل الشعراء المتهدلي الشعر على الخبراء المتحذلقين الوقورين المتأنق الهندام . وهذا الإحتجاج — كما كان منتظرا — قد عبر عنه تعبيرا بالغ القوة في بعض القصائد التي كتبت بعد أن كشفت هذه الحرب القناع عن فظائع العالم الحاضر بكامل بشاعتها . فاليك قصيدة داي لويس Day Lewis المسماة « تقرير » :

« الآن في مواجهة التدمير ، في مواجهة المرأة مزقت إربا فلم يعد يستبان لها هيئة ، مزقها الزجاج المتطاير ، والطائرة القاتلة تدور كأنما أصابها الدوخة والدوار .

حول محور الطيار المسجون فيها والجماهير المحتشدة تصفق ، والمجاعة تنشب مخالبها منذرة بالموت ، وإعلانات الألم القتال تلطخ عناوين الصحف ولوحات الحيطان ، في مواجهة الوليد مات حرقا وقارب السفينة المحطمة تتلاطمه الأمواج الشاهقة .

بينما تتخبط المجاديف بضعف كالخنفساء المقلوبة على ظهرها ، الآن ، أكثر من أي زمان مضى ، حين يبدو الإنسان وكأنه ولد ليؤذي وكأن العالم المتلوي ألما جميعه لا يتسع لرغبته الشريرة ، الآن حان لنا أن نقرر أن الناس هم الحب ، نقرر ذلك في وجههم » .

حقا إنه لا يجرؤ أحد أن ينكر أن هذا الشيء الوحشي الذي يحتج ضده الشعراء له علاقة ما بالعلم . ولكن من المؤكد أنه ليس المعنى الحق لكلمة « العلم » . بل هو نوع من العلم الكاذب . هو موقف عقلي قبل بضعة من الافتراضات العلمية الأولى وسلم بها كأنها مبادىء يمكن استنباط الوجود بأجمعه منها ولذلك كان يسارع برفض كل ما تراءى تطبيقه مستحيلا على معياره الجاهز . ولكن هذا العمل هو أشد شيء بعدا عن العلم . فالعلم ليس طاقا من العقائد . حقا إن للعلم في كل زمن عددا معينا من الإفتراضات يستطيع بها تفسير ما يحدث في العالم . ولكن إذا شرع رجل العلم يظن أن نظرياته تستطيع تفسير كل شيء ، كان لزاما عليه أن يعلن إفلاسه العلمي ، إذ لم يعد يبقى له شيء يقوم به . أما إذا أراد أن يستمر في الميدان العالمي فإنه يجب عليه أن يكون على استعداد للتسليم بأن هناك ظواهر لم يبلغها بحثه بعد ، ومشاكل ليس يستطيع حلها بعد . لم يكن رجل العلم ، بل كان « المنفذ المخبول المحلوق الشعر » الذي وصفه أودن ، هو الذي قرأ نتفا من العلم البدائي ، ثم حسب أنه قد ظفر بجميع الإجابات على جميع الأسئلة . فهو قرأ عن استكشاف داروين لحقيقة تطور الحيوان بواسطة الإنتخاب الطبيعي والكفاح على المعيشة ، ثم اتخذ هذا عذرا يبرر به أشد المنافسات حدة في المجتمع البشري ، وإن كان لم يسائل نفسه لم يحاول الإنسان أن يعيش كالحيوان .

أما العلم الحقيق فهو بطبعه أعظم من هذا تواضعا وأكثر تقبلا ، وإن كان في النهاية أكبر قوة . فالعقل ذو الموقف العلمي الصحيح يلزمه أن يكون على استعداد للإعتراف بوجود أي شيء يكتشف ، وهو لا يستطيع أن يرفض الأشياء لمجرد أنها لا تنطبق على نظرياته المتحذلقة . ولكن لاشك أن موقفه ليس موقفا سلبيا فحسب ؛ فهو لا يقتصر على أن يدرك كل ما يمكن إدراكه في العالم ، بل يبذل أعظم جهده في أن يسيطر على الأشياء ويقبض على عنانها بتفهم الكيفية التي بها تعمل ، وهذا مبزى إصراره على ضرورة التجربة والإختبار . ذلك أن المرء يستطيع أن يحصل على ما يبدو كأنه الفهم عن طريق التأمل الفكري المحض . ولكن هذا ليس فهما علميا ، إذ أنه لا يؤدي إلى السيطرة على الأشياء التي تأمل فيها تأملا فكريا .

الموقف العلمي متقبل أيضا ، ولكنه لا يقتصر على التقبل .

هو يحاول ألا يهمل شيئا ، ولكنه إلى جانب ذلك يصر على أنه يجب ألا يقرأ فى الشىء أكثر مما يحتويه ذلك الشىء ، هو لا يرفض قبول الأشياء ، ولكنه يجب أن يحصل عليها خالصة صافية ، كما هى فى حقيقة ذاتها ، لا كرموز تحمل فى طياتها خواطر مبهمة حالكة غير متميزة .

من السهل جدا أن يلحظ فى كثير من شعراء اليوم تأثرهم بالنزعة العلمية التى تحاول أن تجرد الأشياء عن رموزها وأن تعتبرها كما هى فى بساطتها وتنظر إليها بعين جديدة . ولقد وضح (أودن) هذه النقطة خير توضيح ، وأودن هو أشد الشعراء المحدثين نزعة علمية واعية فهو يقول :

« الساعة الرملية تهمس إلى مخلب الأسد ، وأبراج الساعة تنبىء الحدائق ليلا ونهارا ، كم من أخطاء يصبر عليها الزمن ، وما أشد خطأها إذ هى دائما مصيبة .

ولكن الزمن ، مهما علت دقاته أو ضخمت : ومهما أسرع سيله المتحدر فى الانصباب ، فما حدث قط أنه ثنى الأسد عن وثبته ولا أنه زعزع ثقة الورد .

فهذه كما يبدو ليست تهتم إلا بالفوز : بينا نحن نتخير الكلمات لمجرد طنينها ونعتبر المسألة بحسب إشكالها وما برح الزمن إلينا محببا . هل حدث قط أننا لم نفضل الطريق الملتوى على الطريق المستقيم الذى يقودنا مباشرة إلى حيث نحن ؟ »(١)

ونفس هذه النزعة التى تحاول أن تتناول الأشياء كما هى ، لا تهمل شيئا ، ولا ترى ما ليس يوجد ، يمكن أن يلحظ تأثيرها على أغلب الشعراء المحدثين .

لكن نفرا من أحدث الشعراء ، ممن أحرزوا مكانة وقدرا فى السنوات الأخيرة ، لم يقتصروا على ذلك ، بل مضوا قدما فى سعيهم نحو العلم . فمثلا داى لويس Day Lewis قد نقد فى كتاباته الفوضى الحالية أشد نقد وأمره ، وقام بدور نبى العالم الجديد . وهو قلما حدد بجلاء ما يعتقد أنه أساس العالم الجديد ، ولكنه حين يقوم بذلك يصرح باعتقاده أن هذا الأساس سيكون نفس الشىء الذى سمحنا له بأن يصير مصدر اضطرابنا الحالى ، يقول :

« كم يكون عجيبا أن يبرز من اضطراب ربوة النمل وتخبطها نظام ملائكى تقوم دعامته على الحب ، يستطيع مواجهة الخير والشر كليهما .

كم يكون أعجب من العجب لو أن الشيطان الذى نبعثه لثأر لحقدنا وحزننا وضعفنا ، أخذ بأيدينا كأنه الأمير النقذ ورفعنا وقال : أنا أصفح » .

أليس هذا اعترافا بأن العلم ، الذى كثيرا ما وصفه داى لويس بأنه جرثومة عللنا ، قد يكون فيه جرثومة خلاصنا أيضا ؟!

أما أودن فقد عبر عن هذه الفكرة تعبيرا أشد صراحة وجلاء . هذا ولعل أودن هو أعظم شعراء العقد المنصرم شأنا من كل الوجوه . فهو يقرر بجلاء تام أن العالم لن ينجو إلا حين تسيطر المعرفة على الإرادة الجامحة وتخضعها ، وحين يحدث ذلك فى اعتقاده أن كل النواحى المختلفة من طبيعة الإنسان ستنسجم إحداها مع الأخرى فى أكمل انسجام ، قال :

« لا بد أن تبكى كل عين على انفراد حتى تخلع (أنا أريد) من عرشها ، ولكن من المستطاع طرد (أنا أريد) إذ ليس لها من البصيرة ما يحميها من هجمات (أنا أعرف) ؛ بلى من المستطاع طرد (أنا أريد) .

حينذاك تلتقى كل أنواع (أنا) وتنمو (إننى أنا) حتى تصير : (أنا أحب) و (أنا محروم) تصير : (أنا محبوب) ؛ إذ ذاك تتلاقى كل أنواع (أنا) وتنمو .

حتى تخلع (أنا أريد) من عرشها لا بد أن تبكى كل عين على انفراد » .

---

(١) معنى هذه الأبيات ، أن الانسان قد اخترع فكرة الزمن ، واخترع لقياسه الساعات الرملية والساعات الدقاقة ، وقيد نفسه أشد تقييد بهذا الوهم المصطنع ، فلم يعد يقوم بشىء إلا طبقا للساعة والدقيقة . مع أن الطبيعة نفسها لا تأبه بهذه المقاييس فالأسد إذ يهاجم فريسته وينشب فيها مخلبه لا يستمع إلى ساعة تنبئه بأنه قد حان وقت طعامه إنما يدفعه الجوع والتفاعلات الكيماوية الطبيعية فى جسده . وكذلك البستان إذ تورق أشجاره أو تزدهر وروده ليس يجرى فى ذلك طبقا لمقاييس الزمن البشرية . وقد اختار الشاعر خرافة الزمن كمثال للخرافات التى خلقتها مخيلة الانسان وصارت لها عبدا خاضعا ، بمقتة هذه المصطلحات الكاذبة على حقائق الطبيعة البسيطة المجردة . (المترجم)

ولـكن أودن لا تقتصر نزعته العلمية الحق على هـذا ، بل هو أحد الشعراء القلائل الذين يعرفون كنه العلم الحديث ، والذين يدركون أنه ليس يقتصر على تتبع الجوهر الفرد فى رحلته العمياء بل يهتم أعظم اهتمام بالطبيعة السيكولوجية والإجتماعية لبنى البشر. فأودن يدرك أن مشا كل العصر الأساسية هى مشا كل العلاقة بين الطبيعة البشرية وبين العالم المادى . هى مشا كل سيكولوجية واجتماعية من ناحية ، وطبيعية وكيمياوية واصطلاحية من ناحية أخرى . وهو فى أحدث كتاب له ، « رسالة العام الجديد » ، يتناول بالبحث هذه المشا كل فى قصيدة مذيلة بتعليقات كثيرة تحيل القارىء إلى كتابات كثير من رجال العلم بفروعه المتعددة . وتحليله النهائى للموقف مفرغ فى قالب عبارات مستمدة من علم النفس الحديث مباشرة . وهو يقرر أن مشا كلنا راجعة فى جوهرها إلى أن شخصيتنا (وهى القسم الذى يسميه علماء النفس Ego الذات) ، حين تبلغ المستوى الثقافى الأعلى ، تشعر بعزلتها وتنسى الوشائج الإجتماعية التى تربطها بسائر الجنس البشرى يقول :

« فى الطبقات العليا من الذات ، وفى قمم الخوف الشاهقة تتكون ذرات الخطأ العاصفة التى تهلك الراعى ، ونكبتنا السياسية تهبط من شدة شعورها بذاتها » .

ثم يسترسل فيقرر أن هذا الشعور بالوحدة لا مناص منه فى الوقت الحاضر ، فالإنقلاب الاصطلاحى قد هدم قوالب المجتمع التقليدية التى كانت تجعل الناس يشعرون بأن لهم فى المجموع الكلى مكانا وأنهم منه جزء قال :

« مهما صممنا على أن نتصرف فان تصميمنا لا بد أن يسلم بهذه الحقيقة : إن الآلة قد حطمت اليوم التقاليد المحلية التى كنا نستمع بها ، وإنها قد أحلت محل روابط الدم والملة رابطة الفرد بذاته ، وأرغمت الجميع على أن يعترفوا بأن الوحدة هى طبيعة الإنسان الحق » .

ولـكنه يسترسل فيقرر أن هذا لا يجعل من المستحيل تكوين نظام اجتماعى جديد . بل هو يقول :

« كل اتحاد حق فهو إنما يبدأ بالشعور بالإختلافات ، فللكل حاجات يريدون تقضيتها ، ولدى كل فرد قوة يتطوع بها » .

فهو يفسر هذه المفارقة : بأنه حين يدرك الإنسان أنه فى وحدة بنفسه فحينذاك فقط يستطيع فهم الرابطة الحقة التى تربطه بسائر الناس ، وهى أن كلا يشارك الآخرين فى الشعور بالعزلة . أما الوسيلة التى يقترحها للوصول إلى هذا الإدراك ، أو للتقدم من الشعور بالعزلة إلى إدراك الإتحاد ، فهى « الاعتراف المطلق بخطايانا » . وهذا يشبه أشد الشبه الطريقة التى يستعملها رجال التحليل السيكولوجى للتغلب على العزلة العاطفية للذات وللتوفيق بينها وبين الأقسام الأخرى من الشخصية . والراجح أن أودن — كما يتضح من الحجج التى يقتبسها فى تعليقاته على القصيدة — كان يدرك تمام الإدراك مقدار التشابه بين نصيحته والنصيحة التى يدلى بها العلم . بل هو حين يختم علاجه للمسألة ويبتهل إلى الروح التى يأمل منها خلاص الإنسان ، يستعمل كلمة (العلم) ، كوصف لها . فهو يخاطبها قائلا :

« أيتها المخلوقة الخرافية المختفية فى أشجار الأرز ، والتى لا توصلنا إليها أية رقية سحرية ، الطفولة البيضاء تمضى كالآهة المتهدة فى خلال الأجمات المخضرة لا تؤذيها براءتك اللعوب ، لكى تستثير محبوبك الصادق لينسجم معها بإحامة العلم والنور » .

[عن مجلة وورلد ريفيو] ه . وارنجتون

ظهرت اليوم الطبعة الأولى للجزء الثانى من كتاب :

حكايات من الهند

٦٨ حكاية قصيرة

أبدعها الكاتب الهندى إيار

وضمنها الرمز والإيحاء والحكمة والموعظة الحسنة

واختارها وترجمها

عبده حسن الزيات

صحام

ثمن النسخة ١٧ عدا البريد